

مشاهد من حياة حزقيا

بقلم

تشارلس ماكنتوش

منشورات بيت عنيا

All Rights Reserved

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز نشر أو إعادة نشر أو طبع هذا الكتاب بأي طريقة طباعية أو إلكترونية بهدف بيعها أو المتاجرة بها أو وضعها على شبكة الإنترنت إلا بإذن من الخدمة العربية للكراسة بالإنجيل. يمكنك أن تحتفظ بالكتب والمقالات للإستخدام الشخصي، كما يمكنك أن تنسخها لأجل توزيعها مجاناً لتعم الفائدة.

استجابة صلاة الإيمان

(إشعيا ٣٧)

قبل أن أبدأ كلمتي هذه أريد أن ألفت نظر القارئ العزيز إلى الفرق بين ما ورد عن أعمال حزقيا في سفر الأخبار الثاني ص ٣٢ وما جاء عنه في سفر إشعيا ٣٧. ففي السفر الأول يروي المؤرخ تاريخ حزقيا كمجرد حقائق بينما في السفر الثاني يرمي الكاتب إلى الغرض الأدبي في حياته وما تشير إليه في المستقبل. نقرأ في سفر الأخبار الثاني عن أعماله الحربية أما في سفر إشعيا فقد وضع عليها ذيل النسيان، ولنتأمل الآن قليلاً في مشاهد حياة حزقيا الأخيرة- الحياة الشائقة الملذذة كما رسمها لنا الروح القدس في إشعيا.

فَصَلَّ حزقيا سكون المقداس على جلبية الحرب وهذا ما نراه ساطعاً في كل طرقة، صرف وقته في خدمة المقداس واهتم بوجود الله بين الكاروبيم أكثر من اهتمامه بعرش داود، التصق ببيت الرب وتعلّق به بينما كنا ننتظر منه أن يسرع إلى ميدان القتال لمناضلة الأعداء، بيد أنه اتخذ من المقداس ميداناً للقتال. ويا له من تعليم مفيد لنا، ملك آشور المتكبر كان على أبواب أورشليم بجيشه الجرار وجمعه الغفير وجنوده البواسل وكنا نظن أن حزقيا واقف بين رجال جيشه متمنطقاً بسيفه لابساً سلاحه ركباً في مركبته ولكنه قد اتخذ موقفاً مغايراً لمعظم الملوك والقواد ووجد حصناً منيعاً يجهله سنحاريب. اكتشف ميداناً للقتال حيث يغلب دون أن يرمي سهماً أو يصوب سيفاً. "فلما سمع حزقيا ذلك مزق ثيابه وتغطى بمسح ودخل بيت الرب" (اش ٣٧: ١).

"دخل بيت الرب" هذا هو السلاح الذي فتك بجيش ملك آشور- سلاح عجيب- سلاح مقداس الله. يا ترى ماذا كان يقول سنحاريب لو رآه؟ إنه لم يشتبك مع خصم كهذا فيما سلف ولم يلاق خصماً، عوضاً عن أن يلبس الدروع لبس المسوح وبدلاً من أن ينازله في ميدان القتال بمركباته خرّ على قدميه قدام الله. لو ظهر هذا السلاح أمام عيني ملك آشور لاعتبره خرافة. لقد قابل ملوك حماة وأرفاد وكانوا يشبهونه في مبدئه وخطه قتاله إلا انه لم يواجه ولم يبارز خصماً نظير حزقيا. ما الذي جعل حزقيا يتصرف هذا التصرف الذي أكسبه قوة غير معتادة مع أنه تصرف مخفي عن عيون الناس؟ قاده إلى ذلك شعوره بضعفه وبأنه لا شيء وأن ذراع البشر لا تجدي نفعاً.. وكان في حسبانه إما الله وإلا فلا!! هذا ما نقرأه بحروف بارزة في نشر الرسائل أمام الرب. انسحب حزقيا بقوة إيمانه من المشهد وأخلى الجو ليهوه لتكون المسألة بينه مباشرة وبين ملك آشور. فما عاد حزقيا وسنحاريب هما المتبارزان ولكن الرب وسنحاريب. أدرك حزقيا في نفسه منتهى ضعفه وغاية عجزه، رضي عن طيب خاطر أن يشغل مركز العجز وقال للرب إن ملك آشور قد

عيره تعالى فطالب الله أن يدافع عن اسمه المجيد، ومتى دافع الله عن مجده كانت النتيجة خلاص شعبه.

ألا تطيل التأمل أيها القارئ في هذا المشهد البديع!! ألا تهرع إلى المقادس وتلقي نظرة على إنسان منفرد وحيد مسكين ضعيف ساجد على ركبتيه ساكب نفسه أمام الساكن بين الكروبيم فلا استعدادات حربية ولا استعراض للجيش ولا مناورات للقتال بل شيوخ وكهنة لابسون المسوح وبالإجمال الكل ضعف في ضعف. ومن الناحية الأخرى ترى فاتحاً جباراً على رأس جيش جرار يلوح برايات النصر متعطشاً إلى السلب والنهب وتستطيع أن تقول بحسب العيان وأسفاه على حزقيا وعلى أورشليم قد أصبها هباء منثوراً ولا بد أن سنحاريب وجيشه العاتي يبتلع هذه الفئة الضعيفة "فقال لهم ربشاقى قولوا لحزقيا هكذا يقول الملك العظيم ملك آشور ما هو هذا الاتكال الذي اتكلته. أقول إنما كلام الشفتين هو مشورة وبأس للحرب. والآن على من اتكلت حتى عصيت عليّ. إنك قد اتكلت على عكاز هذه القصبه المرضوضة على مصر التي إذ توكأ أحد عليها دخلت في كفه وثقبتها. هكذا فرعون ملك مصر لجميع المتوكلين عليه. وإذا قلت لي على الرب إلهنا اتكلنا أفليس هو الذي أزال حزقيا مرتفعاته ومذابحه وقال ليهودا ولأورشليم أمام هذا المذبح تسجدون" (اش ٣٦: ٤-٧).

ومن هنا نلاحظ أن سنحاريب اتخذ الإصلاح الذي قام به حزقيا سُلماً للتعبير ظاناً أن يزعزع بذلك أساس ثقة حزقيا إلى أن قال "والآن هل بدون الرب صعدت على هذه الأرض لأخربها. والرب قال اصعد إلى هذه الأرض وأخربها" (اش ٣٦: ١٠). وفي هذا امتحان لإيمان حزقيا ولا بد أن يجتاز الإيمان في الأتون ولا يغنيا أن نقول نحن نثق في الرب بل ينبغي أن نبرهن أننا نثق فيه حقاً ونتكل عليه من قلب صادق عندما يكون كل شيء ضدنا حسب الظاهر. وماذا كان جواب حزقيا لهذه الترهات؟ كان جوابه سكوت الإيمان الجليل "فسكتوا أمام الرب ولم يجيبوا بكلمة لأن أمر الملك كان قائلاً لا تجيبوه". (اش ٣٦: ٢١) هذا هو المسلك الذي انتهجه حزقيا بين الشعب بل هذا هو سلوك الإيمان في كل حين، فالإيمان يمتاز بالهدوء وضبط النفس والترفع في حضرة الإنسان، وفي الوقت نفسه تراه على استعداد أن يتضع ويضع نفسه في التراب في حضرة الله. يستطيع رجل الإيمان أن يقول لرفقائه "قفوا وانظروا خلاص الله" وفي اللحظة عينها يصرخ إلى الله صراخ الرجل الشاعر بضعفه العظيم (خروج ١٤: ١٣-١٥).

وهذا نفس ما جرى مع ملك يهوذا في ساعة التجربة الشديدة الرهيبة الخطيرة. أعره سمعك وهو مختل في المقادس منفرد بالله وهو يسكب ضيق نفسه وانزعاجه في أذني من هو راغب أن يسمع وقادر أن يعين "وصلى حزقيا إلى الرب قائلاً يا رب إله الجنود إله إسرائيل الجالس فوق الكروبيم أنت هو الإله وحدك لكل ممالك الأرض. أنت صنعت

السماوات والأرض أمل يا رب أذنك واسمع. افتح يا رب عينيك وانظر واسمع كل كلام سنحاريب الذي أرسله ليُعير الله الحي. حقاً يا رب إن ملوك آشور قد خربوا كل الأمم وأرضهم ودفَعوا آلهتهم إلى النار لأنهم ليسوا آلهة بل صنعة أيدي الناس خشب وحجر وأبادوهم والآن أيها الرب إلهنا خلصنا من يده فتعلم ممالك الأرض كلها أنك أنت الرب وحدك" (اش ٣٧: ١٥-٢٠). بسط حزقيا المسألة بأكملها أمام الرب وسلّم الأمر في يديه وانسحب من المشهد غير مستصغر الصعوبة معترفاً بأن ملوك آشور قد خربوا كل الأمم وأرضهم ولم؟ لأن آلهتهم كلها أوثان بكم ليست نظير يهوه. ملوك الأمم لم يعرفوا أن يُسلموا أمرهم لله الحيّ الصانع السماوات والأرض وكانت هذه علة انقلاب ممالكهم. يا له من إيمان كهذا. فالإيمان الذي يرى ربوات من الملائكة ومركبات النار تملأ الجبال للدفاع عن الواثق في يهوه المتكل عليه.

ولنتأمل الآن كيف قُبِلت صلاة حزقيا وكيف أجابها الساكن بين الكروبيم. لا يمكن أن الرب يرفض التداخل في صعابنا لو تركناه يعمل واحترسنا من أن نسلبه مجده الخاص. "فأرسل إشعيا بن أموص إلى حزقيا قائلاً هكذا يقول الرب إله إسرائيل الذي صلّيت إليه من جهة سنحاريب ملك آشور. هذا هو الكلام الذي تكلم به الرب عليه. احتقرتك استهزأت بك العذراء ابنة صهيون. نحوك أنغضت ابنة أورشليم رأسها من عيرت وجدّفت على من عليّت صوتها وقد رفعت إلى العلاء عينيك على قدوس إسرائيل" (اش ٣٧: ٢١-٢٣).

لاحظنا فيما مضى أن حزقيا استطاع بالنعمة أن يُخرج نفسه بالمرة من هذه الضيقة وصرّح بعجزه عن مناوأة ملك آشور كما يُستدل من تغطية نفسه بالمسوح عوضاً عن أن يتقلّد السلاح وكأن لسان حاله في بيت الرب وموقفه في حضرة الله إما الله وإلا فلا. تمكّن هذا الرجل المتواضع بإيمانه أن يجعل الرب إله إسرائيل في حرب مباشر مع ملك آشور ولا بد أن الرب إله إسرائيل هذا يقود الرجل اللابس المسوح إلى إحراز النصر على العدو وسلب الغنائم الوافرة. قال حزقيا "أرسله ليُعير الله الحي" فكان الجواب "من عيرت! قدوس إسرائيل" لم يحسب سنحاريب حساباً أنه سيبارز عدواً كهذا ولم يجلب بخاطره قط ولا مرّ بمُخيلته أن رسالته ستُنشر أمام عينيّ الله الحيّ بل بالحري توقع أن يواجه لحمًا ودمًا، توقع أن يرى سيفاً وحربة كما اعتاد في حروبه الماضية ولكن هوذا رجل الإيمان يصلي والله القدير يستمع له وحالاً يخرج ملاك الرب وفي لحظة يحصد من الأعداء مئة وخمسة وثمانين ألفاً. "فلما بكرّوا صباحاً إذا هم جثث ميتة" (اش ٣٧: ٣٦).

تأمل معي أيها القارئ المحبوب في موارد حزقيا فهو عرف قيمة الاختلاء بالله وتمتع بالتعزية والقوة الصادقة في حضرة الله السرية أكثر من أن يحيط نفسه بالجنود البواسل والأبطال المدججين بالسلاح واختبر صدق قول الرسول "بينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوي" ولنا أن نقول لو كان جيش سنحاريب مؤلفاً من الملايين بدل الآلاف لعدّه ملاك

الرب أمراً يسيراً أن يكتسحهم عن وجه الأرض. ومتى عزم الرب أن يعمل لخير شعبه وإجابة صلواتهم فسيان عنده الكثير والقليل "ودفع فرعون في بحر سوف لأن إلى الأبد رحمته" (مز ١٣٦: ١٥).

وهل تغيّر الرب الآن؟ حاشاه. يأتي إليه الإيمان عند عرش النعمة وفي الحال تظهر النتائج الباهرة "إن سألتكم شيئاً باسمي فإني أفعله" (يو ١٤: ١٤) "إذا اتفق اثنان منكم على الأرض في أي شيء يطلبانه فإنه يكون لهما من قبل أبي الذي في السموات" (مت ١٨: ١٩) ما أضعف فكرنا عما يريد الله أن يفعله لو كنا نُكرمه!! أفكارنا ضيقة جداً وصلواتنا صورية ومثلنا مثل ملك إسرائيل الذي ضرب ثلاثاً إلى الأرض ووقف بينما كان ينبغي أن يضرب ستة فهو لم يدرك معنى الضرب وقيّمته وما يقال عنه يقال عن صلواتنا. هيا بنا نُكرم الرب في كل ضيقاتنا بأن نأتي بها إليه فيأتي هو بنا إلى التمتع بالنصرة الكاملة لأنه لا يعسر عليه شيء ومحبته يههما صغائر الأمور "لا تهتموا بشيء بل في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر لتعلم طلباتكم لدى الله. وسلام الله الذي يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم وأفكاركم في المسيح يسوع (فيلبي ٤: ٦ و٧) ولقد تمثل كل هذا في تاريخ حزقيا تمثيلاً جميلاً ولنا البرهان في أمره للشعب أن "لا يجابوه" ولماذا؟ لأنه علم أن الرب تبارك اسمه سيجابوه وفعلاً جابوه برهن أن حزقيا لم يخسر في طريق تعبده وتكريس نفسه لشؤون بيت الرب إلهه ولم يرض الرب أن يقع أي لوم على الملك حزقيا بسبب سجوده في الهيكل. حقاً ما دام حزقيا اهتم بأن يعطي للرب مكانه بين الكروبيم كذلك اهتم يهوه في نعمته الغنية أن يكشف إلى عبده أنه لم يخطئ في تدبيره السياسي. فقد أكمل له في ليلة ما لم يستطع حزقيا أن يُجربه في سنين "اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تُزاد لكم" (مت ٧: ٣٣) الله القدير الغني لن يكون مديوناً لأحد فلننشغل بعمله المبارك والعاقبة ستبين أننا تصرفنا بالصواب. "هاتوا جميع العشور إلى الخزانة ليكون في بيتي طعام وجرّبوني بهذا قال رب الجنود إن كنت لا أفتح لكم كوى السموات وأفيض عليكم بركة حتى لا تُوسع" (ملاخي ٣: ١).

كم خجل بحق لتفانينا في أمورنا وانصبابنا في شئوننا بينما شئون الرب- كنيسة الله الحيّ- قلما تشغل أفكارنا وتسترعي أبصارنا فيلتزم الرب أن يُعلّمنا تقصيراتنا بأن يجعلنا لا نحصد إلا قليلاً ولا ندرك غرضنا الذي نسعى إليه رغم انهماكنا فيه "انتظرتكم كثيراً وإذا هو قليل ولما أدخلتموه البيت نفخت عليه" لماذا؟ "يقول رب الجنود لأجل بيتي الذي هو خراب وأنتم راكضون كل إنسان إلى بيته. لذلك منعت السموات من فوقكم الندى ومنعت الأرض غلتها" (حجي ١: ١ و٩ و١٠) وعلى هذا المنوال يعامل الرب شعبه بالحق فيجازيهم حسب أعمالهم "إن ما يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضاً" (غلا ٦: ٧) ومثل هذه المعاملة لا شأن لها مع قبول شخص المؤمن بالنعمة ولا دخل لها مع مقامه الذي له بالنعمة إذ هذه

تُبارك اسم إلهنا أسس ثابتة راسخة لا تتزعزع ومع كُلِّ يُعَلِّمنا الرسول بالروح القدس " هذا وإن من يزرع بالشح فبالشح أيضاً يحصد" (٢كو ٩: ٦).

هذا مبدأ واسع التطبيق وهو ينطبق على كل شيء فإن كنا لا نزرع في كرم الرب فهو لا يدعنا نحصد حصاداً. إن كنا لا نجعل قلوبنا وأفكارنا في كنيسة الله- خراف المسيح وغنم قطيعه- هل نستغرب إن جفت نفوسنا ونضبت أفراننا وأجدبت حياتنا؟ إن كنا في شؤوننا منمهمكين وبظروفنا مشغولين وبضيقاتنا مهتمين وكانت أحزاننا وضيقاتنا مستغرقة لكل أوقاتنا وشاغلة حيز أفكارنا فلا نعجب لنشوفتنا وجفافنا. ولو كان حزقيا قصر همه وحصر فكره في بناء القلاع والأبراج وأخذ في تشييد الحصون لمملكته وعمل على حفظ وتثبيت عرشه كيف كان يتسنى له أن يذهب إلى بيت الرب ويطلب منه عوناً في وقت الضيق ونجدة في أيام المحن. أما كان يحق عليه أن يسمع في مثل هذه الظروف قول الرب له "هلم إلى قلاعك وأبراجك لتُخَلِّصك في شدتك" وكان يحرم نفسه من الجواب المجيد الذي سمعناه سابقاً؟ ولكن لم يكن الحال لأن حزقيا اعتنى ببيت الرب والرب اعتنى بمملكة حزقيا لأن الله ليس بظالم حتى ينسى عمل المحبة وتعبها وهكذا يكون على كل حين. فلا يتوهمن القارئ أنه ينجح في أموره ما لم يكرس حياته لشؤون بيت إلهه وإذا رأينا ملك آشور المتكبر طريحاً على الأرض فلنرجع أيضاً إلى حضرة الله السرية ولنُطل البقاء أمام الرب لأجل الرب ولنوجد أمامه ونفوسنا مكرسة له تماماً كمن أعطانا كل شيء، وكل ما لنا وما سيكون لنا إنما هو من نعمته المطلقة.

أليست هذه الصورة ترينا حزقيا الملك الصالح كاهناً في المقدس، ولاوياً بين أخوته، ورجل حرب مع العدو في الخارج وأينما قلبنا صفحات تاريخ نجد له صورة حلوة أدبية جذابة إذ يعطينا مثلاً بارزاً لغبطة الإنسان الذي يبدأ عمله بالله ويستمر فيه مع الله وكأنه رنم مع أحد شعرائنا تلك الترنيمة العذبة "ليسترح ذهني التعبان في محبتك الأبدية ولينس أفكار الإنسان. وكطفل أصغى إلى ما تقول وأخرج إلى العمل ما دام نهراً ولكن لن أنسى شركتي الحلوة معك واختلائي بك" فهو يتمنى النصر على العدو ولكنه لا يهمل خلوته الشهية في المقدس، فالهيكل هو مكان الثورى وعلى ركبتيه يضع الخطط الحربية فيفوز وينتصر ويربح الحرب في هدوء وسكون. ظل ملك يهوذا على ركبتيه إلى أن رجع ملك آشور إلى أرضه بخزامة في أنفه ولجام في فمه كوحش مفترس عبرة ومثلاً لكل ما تقود إليه الكبرياء. ولم تكن هذه خاتمة المطاف ولا نهاية المأل بل رجع هذا العاتي بدُّل وخزي منهزماً وليست له معرفة بالرجل الذي لبس المسوح. وظن أن يظفر بالأمن في هيكل إلهه لأنه لم يعرف أن يلبس المسح في حضرة الجالس بين الكروبيم وما كان منه إلا أن لاقى حتفه وهذا هو مصير كل من يرفع نفسه ضد الرب وشعبه.

مشاهد من حياة حزقيا

"ويعود الناجون من بيت يهوذا الباقون يتأصلون إلى أسفل ويصنعون ثمرًا إلى ما فوق لأنه من أورشليم تخرج بقية وناجون من جبل صهيون. غيرة رب الجنود تصنع هذا" (اش: ٣٧ : ٣٢).

يبحث النبي أشعيا في تاريخ حزقيا من الوجة الأدبية كما يبحث في تاريخ هذا الملك من حيث علاقته بمصير ومستقبل الأمة الإسرائيلية. تأملنا فيما سبق في الوجة الأولى والآن نتأمل قليلاً في الوجة الثانية:

يرمز سنحاريب إلى الملك الصفيق الوجه الذي يرفع نفسه على ما يُدعى إلهًا أو معبوداً "ويُفعل الملك كإرادته ويرتفع ويتعظم على كل إله ويتكلم بأمر عجيبة على إله الآلهة ويتبجح إلى إتمام الغضب لأن المقضي به يجري" (دا: ١١١ : ٣٦) (قارن ٢ تس ٢ مع دا: ١١٦ : ٤٥) فحزقيا اللابس المسوح يمثل البقية التقية في اليوم الأخير التي تصرخ للنجاة من يد ظالمها القوي يومئذ "أتملقها واذهب بها إلى البرية والأطفها" (هو: ٢ : ١٤) وفضلاً عما سبق من المبادئ الأدبية السامية اللازمة لسلوكنا اليومي نرى في تاريخه صورة نبوية تمثل لنا تاريخ إسرائيل في الأيام الأخيرة. يا ليت الرب يعطينا نعمة لتُعظم وتُقَدَّر شهادة أبينا السماوي أكثر فأكثر وبالأخص عندما نرى أفكار الناس المبهمة الغامضة وحوادث الظروف المظلمة "كل جسد عشب وكل جماله كزهر الحقل يبس العشب ذبل الزهر لأن نفخة الرب هبت عليه حقاً الشعب عشب يبس العشب ذبل الزهر وأما كلمة إلهنا فنثبت إلى الأبد" (اش: ٤٠ : ٦-٨).

ثم نجد في الإصحاح الثامن والثلاثين من إشعيا أن الملك حزقيا وصل إلى الدرك الأسفل أي "أبواب الهاوية" وليس هذا النزول لأجل ظروف وحالة مملكته بل نزل في شخصه وقد سمح الرب أن الملك حزقيا يشعر برعب ملك الأهوال ويد الموت القاسية كما شعر قبلاً بتهديدات ملك آشور المتشامخ والآن رأى من اللازم أن يلجأ إلى الله نفسه. هذا كان وقت امتحان وشدة، وكان أيضاً وقتاً مثمراً، ومن الهين علينا أن نتتبع آثار يد هذا الصديق الأمين في مثل هذا المشهد الرهيب. مر حزقيا في ظروف كان يتسنى للعدو أن ينفخه بها- سبيل مجيد- سبيل التعبد والخدمة- سبيل الإصلاح الباهر الذي جرى على يديه- سبيل ظهور تأثيره الحسن الفعال في الكهنة واللاويين- ونفوزه في يهوذا وإسرائيل- وكلمته المسموعة في قومه- وخلاصه المجيد الباهر من خصمه اللدود العنيد بواسطة رب الجنود- كل هذا كان من شأنه أن يثير كبرياء قلبه وفي الختام سنرى أن حزقيا لم يكن يجهل هذه الكبرياء ولا أين مقرها. يليق بنا في ظرف كهذا أن نصفق إعجاباً ونهتف بسرور لأمانة إلهنا الذي بعد أن بسط أمامنا هذه المشاهد المنيرة ورسم أمام أبصارنا حياة هذا الرجل

الصالح نسمعه يلفظ هذه الأقوال الخطيرة في بدء إصباحنا المشار إليه "هكذا يقول الرب. أوص بيتك لأنك تموت ولا تعيش" (اش ٣٨: ١) فأصبحت الآن المسألة شخصية "أوص بيتك" انشغل فيما سبق ببيت الرب وعمِل له، تدرّب بخصوص حالة المملكة ونعم ما فعل وما كان يمكنه أن يجلس على عرش داود لو لم ينح هذا النحو، إلا أن هناك مسألة أعمق من هذه المسائل كلها. دنا الرب من عبده وقصد أن يعامله بخصوص بيته قائلاً له "أوص بيتك" ويا لها من كلمة تفحص القلوب والكلى إذ مسّ الرب ينابيع قلبه الخفية التي لم يلاحظها وسط مشاغل الخدمة، وقد ضرب على وتر قلبه الحساس فانفتحت مخادع نفسه المستترة وانكشفت خباياها، تلك الخبايا التي بقيت مغلقة أثناء اختلاطه مع الناس. إننا عند ما ندنو إلى سرير مرض حزقيا نشعر بالمهابة والخطورة لأن التحول كان فجائياً، فالذي كان لابساً سلاح النصر والظفر بين الهتاف والتهليل، ما هي إلا عشية وضحاها حتى نراه عند أبواب القبر. سبق أن شاهدناه في المقادس يرفع هامته على العدى والمبغضين والآن يُنكس رأسه وملاك الموت سائراً نحوه ليضرب ضربته القاضية وفي كلا المشهدين نتتبع آثار الله نفسه. في الأول نرى الله عاملاً بالنعمة والرحمة وفي الثاني نراه متصرفاً بالحكمة والأمانة لأنه هو الله ولسنا ندري بأي المشهدين نحن أشد إعجاباً بأبواب النعمة القائلة لسنحاريب "احتقرتك العذراء بنت صهيون" أم بالصوت القائل لحزقيا في ملء الأمانة "أوص بيتك" في المرة الأولى خلص عبده من عدوه وفي المرة الثانية خلص عبده من الذات وهذا خلاص أمجد وأعظم.

ماذا يعمل حزقيا في ساعة محنته هذه!! في هذه المرة لم يصعد إلى بيت الرب بل صعد على الرب نفسه وحسناً فعل "فوجه حزقيا وجهه إلى الحائط وصلى إلى الرب" (اش ٣٨: ٢).^١

هذا هو العلاج في كل الأزمنة "إنما لله انتظري يا نفسي لأن من قلبه رجائي" (مز ٦٢: ٥) فقد قصد الرب أن يُنشئ في نفس عبده العزيز شعوراً صحيحاً بحالته الحقيقية- حالة الاعتماد والاتكال- أراد أن يريه أن نفس اليد التي أنقذت مملكته من مخالب العدو تشتاق أن تنفذه من براثن الموت. وما لم يتأسس ملكه ويُبَيّن شخصه على قوة القيامة فلا دوام له ولا لمملكته. يا له من توافق إلهي بين قوله "أوص بيتك" وقوله "حوّل حزقيا وجهه إلى الحائط" فكانه ردد نشيد داود "أليس هكذا بيتي عند الله لأنه وضع لي عهداً أبدياً متقناً كل شيء ومحفوظاً. أفلا يثبت كل خلاصي وكل مسرتي" (٢صم ٢٣: ٥) فوضع الآن حزقيا نفسه كما وضع مملكته قبلاً في يدي يهوه حيث الأمان.

١- ربما يسأل البعض لماذا اشتاق حزقيا إلى البقاء طويلاً وإلى العمر المديد، فجواباً للسائل نقول أن اليهودي قد تعلم بان طول الحياة بركة خاصة من يد إله إسرائيل الأمر الذي يتنافى مع رغبة المؤمنين في العهد الجديد. وقد كان جل رغبة اليهودي أن يعمر طويلاً في الأرض، أما المسيحي فسيرته في السماء وينبغي أن يكون قصارى أمنيته أن يكون في السماء فعلاً كما هو فيها الآن روحياً ومبدئياً.

ويجب أن نلاحظ أن الرب يقرن خلاص المملكة بإقامة الملك "هاأنذا أضيف إلى أيامك خمس عشرة سنة ومن يد ملك آشور أنقذك وهذه المدينة وأحامي عن هذه المدينة" (اش ٣٨: ٦ و٥). ومن هنا نتعلم صريحاً أنه لا مناص من اجتياز يهوذا وملك يهوذا في الموت والقيامة وهما أمران عكس الطبيعة تماماً ولأجل ذلك قلب الرب نظام الطبيعة (اش ٣٨: ٨) وما أبدع إظهار قوة الله بالنعمة التي تُغيّر نظام الطبيعة وما أبهى هذا المشهد في حياة حزقيا فنجاته من آشور عجيبة وخلصه من الموت أعجب وأمجد. استطاع أن يأتي بالله إلى مشاكلة ومصاعبه، إلى بلاياه ومصائبه، إلى ضيقه وكربه، فأعطاه الله الخلاص وأظهر له عجائبه. والله لا يعبأ بما يقف في سبيله وهو عامل لخير شعبه. فلا يكتفي بإيقاف الشمس كما في حادثة يشوع بل يُرجعها إلى الوراء لتتجلى أعمال نعمته الإلهية وتسطع قوته في خلاص من اتكل عليه وطلب منه العون والمدد وحقاً إذا لجأ الإيمان إلى التقدير فكل شيء مستطاع.

لم يرتض الرب أن يخلص عبده بأسلوب يؤثر ولو قليلاً على الدرس الإلهي الذي رغب أن يُعلّمه إياه، ولاحظ ماذا يقول حزقيا "كتابة لحزقيا ملك يهوذا إذ مرض وشفي من مرضه" (اش ٣٨: ٩). وهذا الاختبار الذي استنشق نسيمه ونشتم عبيره في هذه الكتابة لم يبلغ إليه حزقيا في وسط محفل إسرائيل ولا في ميدان القتال ولكن نستنشقه حيث طرحه الله على سرير المرض ومن مثل الله مُعلماً.

وإن سألنا ما هي الدروس الخصوصية التي تعلّمها حزقيا في مرضه لألفينا الجواب في العدد الخامس عشر من الإصحاح الثامن والثلاثين حيث يقول "بماذا أتكلم فإنه قال لي وهو قد فعل. أتمشى متمهلاً كل سبني من أجل مرارة نفسي" وقصارى القول أنه تعلم أن يمشي متمهلاً وكان غرض الله أن يُعلّمه هذا الدرس المبارك وإن نسيه سريعاً فضلاً عن أن حزقيا تعلم شيئاً عن الله وعن نفسه وما أحوجنا إلى هذا التعليم إذ لا يغنيننا شيء عن اكتشاف منابع قلوبنا الدفينة إلا إذا اكتشفنا منابع قلب الله الغنية. ولو تعلم الإنسان ما في قلبه من الخطايا الدفينة ومبادئ الشر فقط لهوى في بالوعة اليأس واستحوذ عليه القنوط ولم يكن تعليمه تعليماً إلهياً ولكن إن اكتشف خطيته ثم اكتشف نعمة الله التي أزالت هذه الخطية ونزعها فهذا هو التعليم الإلهي عن الله وعن نفسه.

وهيئات أن يتضع الإنسان إلا إذا درس نفسه بالعلاقة مع الله فالنعمة التي تنزع الخطية تقود النفس إلى منتهى التواضع وهذا ما جرى مع حزقيا فتعلم أن يمشي متمهلاً وما أغبط الاكتشاف الذي اكتشفه عن الله فهو لم يعرف فقط أنه يُنقذ المملكة من يد ملك آشور بل عرف أنه أنقذ نفسه من وهدة الفساد وطرح خطاياهم وراء ظهره وهكذا تخلص حزقيا من ذاته ومن خطاياهم ومن الحفرة ليشغل مركزه بين الأحياء "الحيّ الحيّ هو يحمذك كما أنا اليوم ويعظم اسم الرب".

ومعاملات الله الخطيرة قادت نفس هذا الرجل الصالح إلى مركز سعيد فالإصحاح يُفتتح بقوله "أوص بيتك" وهذه الجملة أزال الت نقاب عن أمور كثيرة رآها حزقيا فاتضع غير أنه تعلّم كثيراً عن محبة الله الفدائية التي ترد النفس وكان جوابه لقوله "أوص بيتك" ذلك القول الجميل "طرحت خطاياي وراء ظهرك" أما عن بيته فقد عرف أنه لم يكن مع الله ومع كلِّ ألقى بنفسه على وعد الله واثقاً أنه سيجعل له بيتاً أميناً ثابتاً "الرب لخلاصي فنعرف بأوتارنا كل أيام حياتنا في بيت الرب" (اش ٣٨ : ٢٠).

إلى هنا نشاهد أن خدمة الهيكل والعبادة فيه قد رجعت إلى مجاريها وأن يهوذا قد أنقذ وأقيم من وهدة الفساد. والإنسان في ميل لأن يظن أنه الآن في طريق الخطوة الأخيرة بين المجد وظهوره ولكن وأسفاه فإن هذه مجرد ظلال هنيئة إلى ما هو مزعم أن يُستعلن بيننا عندما يتبوا ملك يهوذا الحقيقي مجلسه على عرش داود أبيه ويتقلد صولجان الملكوت الذي لن يتزعزع.

الدرس الأخير العميق

في حياة حزقيا

"وهكذا في أمر رؤساء بابل الذين أرسلوا إليه ليسألوا عن الأعجوبة التي كانت في الأرض تركه الله ليُجربَه ليعلم كل ما في قلبه" (اي ٣٢: ٣١).

لا أطيل التأمّل معك أيها القارئ المسيحي لأن الروح بل الكاتب الإلهي يتحاشى الإسهاب في كل موضوع كهذا، فبينما نرى الروح يتوسع في ذكر محاسن القديسين ويتلذذ بها نراه بغاية الإيجاز وبحزن مفرط يشير إلى سقطاتهم وهذا ما نلاحظه خصوصاً في تاريخ حزقيا الذي شغلت أعماله الصالحة أربعة إصحاحات طويلة في سفر الأخبار الثاني بينما تقصيره وزلته لا تُذكر إلا في عدد واحد "هكذا في أمر تراجم رؤساء بابل الذين أرسلوا إليه ليسألوه عن الأعجوبة التي كانت في الأرض تركه الله ليُجربَه ليعلم كل ما في قلبه" (اي ٣٢: ٣١) هذه كلمات قليلة شاملة جامعة ولا يستطيع الإنسان أن يعرف كل ما في قلبه أو أن يقف أمام هذه المعرفة إلا إذا أدرك محبة الله في الفداء. استدعى الحال أن حزقيا يتعلّم عن الله في تاريخ حياته السابقة ويدرك نعمته وبذلك استطاع أن يكتشف خبايا قلبه ويرى كل ما فيه وكم من المعاني متضمنة في هذه الجملة القصيرة "كل ما في قلبه" ومن يستطيع أن يرى كل ما في قلبه إلا ذاك الذي قال "طرحت كل خطاياي وراء ظهرك" نستطيع أن نرى كل ما في قلوبنا متى علمنا أن الرب غفر كل آثامنا وشفى جميع أمراضنا- متى رأينا "تيس عزرايل" المُعَيّن من الله هارباً بآثامنا إلى البرية إلى أرض النسيان "ويضع هرون يديه على رأس التيس الحي ويُقر عليه بكل ذنوب بني إسرائيل وكل سيئاتهم مع كل خطاياهم ويجعلها على رأس التيس ويرسله بيد من يلاقيه إلى البرية" (لا ١٦٦: ٢١) في هذه الحالة نستطيع أن نتطلع في قلوبنا ونرى ما فيها من شر خبيث ولكن لا نرى خطايانا مغفورة وآثامنا مستورة لهالنا رؤية شر قلوبنا ويئسنا من منظرها، أما متى عاينا الله في الصليب يسهل علينا أن نتعلم شرّ قلوبنا وندرك رويداً رويداً جمال تلك الجملة القصيرة "كل آثامنا" مُحيت في الصليب ونُقَدّر نعمة الله خير تقدير وقوة فاعلية دم ربنا يسوع المسيح المطهر.

ونلاحظ في تاريخ حزقيا أن الرب في كل مرحلة يقترب أكثر فأكثر لعبده ويعامله معاملة لخيره فتم فيه المكتوب "كل غصن يأتي بثمر ينقيه" (يو ١٥: ٢) وكلما ازددنا تعبداً للرب وسمونا في سلوكنا كلما غار علينا وراقب حركاتنا لكي يباركنا بركة أغزر ويعطينا الفرصة لنقيم البرهان على تعبد قلوبنا له. يلتزم الرب أحياناً أن يكشف شرّاً كامناً فينا ليقضي عليه ويُخلّصنا منه وهذه هي مقاصده الحكيمة في معاملته لحزقيا. لا شك أن ترتيب المملكة في مثل تلك الظروف واندحار سنحاريب ألقى الرعب على الأمم حولهم إذ قام

البرهان وقُدِّمت الشهادة على أن المملكة منظمة. وأن قلوب بني إسرائيل وهم راجعون إلى أرضهم يغنون أناشيد الفرح مما برهن على أنهم كانوا في الهيكل ساجدين عابدين وبالإيجاز قد نال حزقيا الشهادة من العالم في الخارج ومن أخوته في الداخل بأن سبيله كان سبيل البر والأمانة وما أجمل أن لا يجد العالم فرصة لكي يعيِّرنا في سلوكنا ولا إخوتنا فرصة لكي يشتهبوا في حياتنا عندئذ نرتفع في بحبوحة السعادة والفرح الروحي لكن يوجد أكثر من ذلك وهو أن الله يحدد نظره في أعماق قلوبنا فيرى ما يعجز العالم أو إخوتنا عن رؤيته. فهو لا يكتفي بمملكة منظمة ولا ببيت مرتب ولا بسلوك سامٍ مجيد ولكنه يشناق إلى قلب منظم.

ألا يفحص هذا الحق قلوبنا ويُعلِّمنا الدروس المطلوبة؟ عندما شرع حزقيا في سيره الجهاري التفت إلى التشويش في مملكته ثم إلى التشويش في بيته ولكن الرب ألفت نظر عبده إلى التشويش الذي في قلبه ولا يوجد أصعب من هذا الامتحان. صحيح أن حزقيا فاق نظراءه في الملك فقد تفوّق على يوثام وأحاز اللذين لم يباليا بالمملكة ولا بالبيت ولا بالقلب ولكن قصد الله أن يسوي الأمر بخصوص حالة قلب عبده وهنا أقول من ذا الذي استطاع أن ينجح في الامتحانات الثلاثة إلا الوحيد الفريد الذي قال "أسلك في كمال قلبي في وسط بيتي".

ومن أين جاء العدو الذي هزم هذا البطل- حزقيا- الذي سار في طرق الله بقدم ثابت؟ أتى من بابل- نبع الشر الأدبي القديم الذي سرى وسط محلة إسرائيل فسممها في أيام يشوع "في ذلك الزمان أرسل مردوخ بلادان ابن بلادان ملك بابل رسائل وهدية إلى حزقيا" (اش ٣٩: ١) وهنا نرى ملكاً هاجم حزقيا وكان أشد فتكاً من ملك آشور وجيشه الجرار وأقوى بطشاً من ملك الأهوال- الموت- الذي كان مزمماً أن يختطف روح حزقيا- ملك بابل أتى بهدية- هدية بطشت بقلب حزقيا. لما هدده ملك آشور وأرسل الرسائل له "صعد إلى بيت الرب ونشرها أمامه" فظفر وانتصر، ولما واجهه الموت "وجّه حزقيا وجهه إلى الحائط وصلى إلى الرب" فأقامه الرب من بين الأموات، إلا أنه لما أتى رؤساء بابل "فرح بهم حزقيا وأراهم بيت نخائره" فسقط وكان سقوطه عظيماً!! يا له من إنذار مرعب- إنذار خطير!! كان حزقيا غافلاً فعلاً، لا صلاة ولا صراخ ولا طلب لوجه الرب، ضعفت بصيرته الروحية، كَلَّت عيناه عن النظر فلم يستطع أن يكتشف الطعم- الطعم المحلّى بالذهب البراق اللامع- الفخ الخفي المنسوب لقدميه!! أين أنت يا حزقيا؟ هل ذهبت ونشرت رسائل مردوخ أمام الرب؟ لو كنت فعلاً ذلك لسما بك الرب فوق تأثير سياسة العالم وجاذبيته المحبوبة كما سبق وحفظك من رعوده وتهديده، ولو كنت يمت شطر المقدس لنجوت من خداع الحية كما خلصت سابقاً من زمجرة الأسد. وهنا الوحي يرينا علّة فشل

حزقيا وتقصيره "تركه الله ليعلم كل ما في قلبه" ومتى ترك الله إنساناً فدودة كافية لأن تقلب كيانه.

يا ليتنا نتعلم درساً في حينه من تقصير حزقيا، وأن العالم متى ابتسم في وجوهنا تغلب علينا أما متى زمجر ضدنا دفعتنا زمجرته هذه إلى الصليب. إنه من الصعب أن نتنصر على أهل جبعة الظرفاء أو على أجاج المؤدب البشوش كما على بني عناق القساة القلوب أعداء الله التي تعلمها وهو عند أبواب القبر وعن محبة الله الغافرة التي طرحت خطاياهم وراء ظهره، بدل أن يرسم هذه كلها أمامهم "أراهم بيت ذخائره. الفضة والذهب والأطياب والزيت الطيب وكل بيت أسلحته وكل ما وجد في خزائنه لم يكن شيء لم يرههم إياه حزقيا في بيته وفي كل ملكه" (اش ٣٩: ٢) فهو كان مشغولاً بذاته ناسياً الله نسياناً غريباً لا نستطيع أن نعلله إلا بالقول هذا هو الإنسان- إنسان الله إذا ترك لنفسه.

أما وقد برز شره تماماً لا في عيني الله فقط ولكن في عيني نفسه أيضاً فالرب بنعمته يقود عبده لا إلى نهاية مملكته فقط ولا إلى نهاية بيته فقط بل إلى نهاية نفسه "هوذا تأتي أيام يحمل فيها كل ما في بيتك وما خزنه أبوك إلى هذا اليوم إلى بابل لا يُترك شيء يقول الرب ومن بنيك الذين يخرجون منك تلدهم يؤخذون فيكونون خصياناً لقصر ملك بابل" (اش ٣٩: ٦ و٧) ولي أن أقول أن حزقيا رأى نهاية ملكه وبيته ونفسه الكل سيذهب إلى بابل التي أغوته بسفرائها وطوّحت به بهديتها وكل شيء افتخر به قلبه المسكين وتباهى به أمام العالم وما كان منهم إلا أن غنموا هذه الذخائر لأنفسهم ولكن السلام والحق أي الذخائر التي كانت له في الله لم تُترَع منه وكان له في الله مال أفضل وباق لأنه كان محفوظاً في السموات.

وها نحن قد وصلنا إلى ختام هذا التاريخ المشحون بالتعاليم ورأينا أعمال حزقيا أولاً وأخراً ترتسم أمام أبصارنا- رأينا أسرار مُلكه وأسرار بيته وأسرار قلبه، طفنا معه في مُلكه من السنة التاسعة إلى السنة العشرين وأخيراً رأيناه في صحبة السلام والحق، شاهدناه في تجاربه واثقاً في الله ورأيناه أمام العالم وأمام إخوته وسبيله كان سبيل الصديق الذي يشرق وينير إلى النهار الكامل.

والآن أسألك أيها القارئ المسيحي العزيز أي ثمرة جنيت لنفسك من هذه التعاليم- التعاليم التي أدت بنا إلى خاتمة الطريق الذي فيه نرى بطلان الحاضر وزوال الأُمجاد الأرضية ومتى تعلمنا الدرس المُذلل عن قلوبنا وعن شرها ورأينا نهاية كل شر أفلا يلذ لنا ويحلو لنفوسنا ويطيب لقلوبنا أن تجد سلاماً وحقاً هما نصيبنا الدائم النهائي- يا لإلهنا من إله كريم مُنعم- إلهنا الرحيم الذي طرح خطايانا وراء ظهره وأصعدنا من جب الهلاك ووضع على صخرة أرجلنا وفي أيدينا قيثارة نرنم له بها في وسط بيته فنُغني للسلام والحق طول

النهار الأبدي ونقول: ربي وهبت لي أنا البائس المسكين قيثاره ذهبية مشتراة بالدم الكريم-
أوتارها مشدودة هيأتها قوة الله لأغني عليها مدى السنين في أذني الأب باسمك وحدك لا
سواه.

الخدمة العربية للكراسة بالإنجيل هي هيئة إرسالية شغفها نشر كلمة الله في العالم العربي
عبر الإنترنت وعبر وسائل إلكترونية أخرى. وتقوم بتوزيع الكتاب المقدس مجاناً للجالية
العربية في أميركا الشمالية والقطر العربي وبلدان العالم. بالإضافة إلى مجموعة من
الأقراص المضغوطة التي تحتوي على كتب روحية، عظات، تراتيل والكتاب المقدس.
لمزيد من المعلومات الرجاء الإتصال بنا.

يحفظكم الله ويملاً حياتكم بالصحة والسعادة والسلام.

أسرة الخدمة العربية للكراسة بالإنجيل